Uluslararası Sempozyum
International Symposium
المؤتمر العالمي

3-5 Ekim - October 2004 Istanbul / Turkey
٣-٥/١٠/٢٠٠٤ استانبول - تركيا

المؤتمر العالمي السابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووئام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م

Ekim 2004

الترقيم الدولي

ISBN: 975-269-043-2

شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

بديع الزمان والعنف ..أو الفكر الوقائي

د/محمد عبد النبي
جامعة الجزائر

مقدمة

الفكرة التي تنشئها المضائق قد تحبسها مساربه، والنهج الذي تتحكم فيه مسالك الاضطرار، قد لا يخرج عن أجواء الزقاق والأقبية، وحين تطول فترات الاستثناء تقلّ فرص الشروع في الولوج إلى الحياة الحرة الكريمة، وحين يستمر الإحساس بالقهر يُخشى أن ينضح به فكر أو سلوك، ينـــزع إلى غرائز التشفي والانتقام، ما لم تتداركه الأمزجة السوية بتعديل أو ترجيح، يخفف من لهجة تحتد، أو موقف قد يزداد بالقهر شططه.

ومما يجدر التنبيه إليه أن أجواء الاضطرار التي تطول، قد يألفها تابع، فيصعب عليه هجرها، لتوجسه من مجهول لا يعرفه، ولخوفه من فشل يخشى به من فوات موقع، أو تفلت مغنم، تنحسر به فضاءات تأثير، أو تنعدم، كانت ترفع من ذكره، وتثني على جهده.

والعاقل من ترفّع عن هواجس تخضعه، لأهواء تضر ولا تنفع، ومن تحسّب للمراحل، فأعدّ لكل ظرف ما يلائمه، ولكل ساحة الفقه الذي يخدمها.

ولا يعني ما سبق أن فكر الإصلاح لا يولد إلا على الفراش الوثير، حتى يعتدل مسلكه، ولا ينشأ إلا في ظلال الدعة والسكون، حتى يُزكّى خطوه، ولكن أناسا يحسبون البلاء لازمة من لوازم القبول عند الله، وعند الناس، فيقيسون الصواب في الرأي، ويقدِّرون النجاح في العمل، بمقدار البلاء الذي نـــزل، فيسعى، أو يسارع للتعرض له، لاكتساب شرعية تخلفت، أو لتحصيل سبق يُخشى أن يؤول إلى منافس يترصّد.

هناك فرق بين سائر يتحين المحنة، وقد يعاجلها بقول لا لزوم له، أو بعمل لا ضرورة تدعو إليه، فيعرض نفسه لما لا يطيق، وقد نهت السنة عن ذلك، وبين من يبتغي العافية–

و هي أمنية مشروعة–حتى لا يثير أعشاش الدبابير، فإذا نـــزل بساحته–مع ذلك–ما لم يطلبه أو يتمنه صبر واحتسب، و لم يتذرع بالبلاء ليجنح بالفكر، أو يجمح بالسلوك إلى وجهة لا تُرتضى.

إن الولوج إلى دائرة العنف في القول أو في العمل ينم عن اضطرار يُدفع إليه انتهاء، أكثر مما ينبئ عن قرار يخلص إليه الأحرار ابتداء، والظروف الملجئة لها دور وتأثير، ولكن البنية الفكرية والنفسية تسبق الفعل بمراحل، حتى إذا أثارها العامل الخارجي استثيرت، وقد تُصنع للفكر المنفعل أجواء فيُستدرج، أو تُختلق له معارك فيُستهلك، ذلك أن عناصر التوازن بين الأطراف لم تُتح في يوم من الأيام، والمقتدر قد يوحي بهزيمته، ليتيح للضعيف أن ينتشي فيتهور، وسرعان ما يكرّ عليه فيصرعه.

ومع ذلك فالأمور ليست بالوضوح المفترض، والوجدان الذي يصنعه القهر والظلم يصعب مواجهته، أو إقناعه بالتعقل أو التحسب للمآل، وغاية ما يطمح إليه المقهور هو التشفي، وإرادة الانتقام، ولا يعلم أن مثل هذا المزاج يمنع العمل المثمر، والفعل الجاد، ولا مفر من إجهاد النفس بالتربية، وهي لا تنصرف فقط إلى تزكية القلب والسلوك، في مدارج السعي إلى ابتغاء القبول والرضوان، ولكنها تشمل تربية العقل، ولجم العواطف، وتهذيب الطباع والوجدان.

فأما العقل فتهيئته وتأهيله للحكم على الأشياء ببصيرته، والنفاذ إلى التفاصيل، واستباق العاطفة من التأثير عليه، والأهم من ذلك النظر في النصوص، والتمييز بين ما وضحت دلالته، فلم تحتمل إلا وجها واحدا، وما لم تترجح فاستوى فيه الاحتمال.

و أما الوجدان والعاطفة فلضبط مسارهما، ولمنعهما من التحكم في ما يمكن أن يؤول بالقرار إلى ما لا تُحمد عقباه وآثاره.

لكل منهج نصوصه ومرجعيته الفكرية التي يستند إليها، يحتكم إليها الأتباع حين التنازع، وقد يتذرع بها من يريد التنصل من مسار، يسعى لكي يقوضه، ليبني ما يزعم أنه الأوفق مع النص، أو الأوفى لسيرة تحوز الإجماع، أو ما يشبهه، وتشكل مرجعية غير مباشرة، تعضد المرجعية الأصلية، وتمدها بما يشبه المذكرة التفسيرية في القانون.

وقد تنشأ عن الفكرة الأصلية مدارس، فيها ما قد يجنح إلى الغلو، وأخرى تميل إلى التيسير، ومن الأتباع من يناصر الأولى، ومنهم من يشايع الثانية، وكلاهما يدعي التمسك بالنصوص،و السير على الخط الأصيل، والتجارب أثبتت أن من يؤصل لتشدده، بالنص يؤوله، لن يعمر، وإن فعل فالخسائر تلاحقه، وبالتعبير النبوي: لن يقطع أرضا، ولن يبقي ظهرا، ذلك أن نفَس المنبتِّ قصير، وأحكامه أقصر، وإن أُطلقت، ومن يلجأ إلى الغلو فلوضوح الطريق، وإن ضلّ سالكها، والعقل يعطِّله، يستعيض عنه بالنقول يكدسها، ومن يعارضه، يسارع إلى تجريمه، بالتكفير تارة، وبالتخوين تارة أخرى.

إن أصحاب هذا الطريق يتوسلون بالأحكام المطلقة، لا يقفون عند قيد، ولا يلتفتون إلى تخصيص، ولذلك تزعجهم التفاصيل، أو تحرجهم عند الحجاج، والحكم عندهم يتلوه حكم، والتكفير تتبعه الاستباحة، ومن تردد أو تأنى فلاستشعار الحرج، ومن كفر الولاة، سبيلا لإزالة الغبش، استبطأ النصرة، فكفر الأنصار، ولذلك تراهم يعيشون في أزمة مع أنفسهم، أشد وأعتى من تلك التي يعيشونها مع مجتمعهم، وبعض من سعى للعلاج غدا جزءا من السقم، وبعض من جاهد من أجل البراء شعارا، أعطى الولاء اضطرارا .

وهناك أمر آخر يقلص من فرص انفراج، ويغذي الحدة والعنف، ويبقي الأبواب-والعقول-مغلقة، فالقهر إن لم ينـــزل استُجلب، وإن استُبطئ استعجله أنصار العنف، بالمواجهة سبيلا لابتغاء الأجر، أو طريقا لنيل الشهادة، وفي الوجدان أن الحراك الذي لا يقود إلى البلاء مشكوك في أصحابه، والنهج الذي لا تغذيه المحن أعماله كسراب، لن يجده العامل شيئا يوم الحساب، ولا يهم أصحاب هذا الطرح أن يفسدوا على الأغيار طريقهم، أو أن يشملهم تنكيل، فقد يعجبهم أن ينال الخصوم ما ينالهم، إذ يرون في العقاب ما يخدم طرحا في المفاصلة، يقنعون به أتباع غيرهم، بأن لا مجال إلا مجال العنف سبيلا، مع أنهم لا يعترفون لهم باستقامة نهج، ولا بصحة اعتقاد، تؤهلهم للسير في دعوة، أو ترشحهم لجزاء عند الله.

جمال النفس..و الكون

الدعوة التي تؤصل للسلم في "الداخل" ابتداء، وترفض أن تنـــزل مصطلح الجهاد على واقع لا يتحمله، لا تضطرها الظروف-الحقيقية أو المصطنعة-للتراجع، وإن اختارت

أن تُراجع، ففي الخيارات العملية، وليس في المبادئ أو الأسس، أما من يختار طريق العنف ابتداء، ثم يُلجأ للتغيير، فلن يُصدّق، وإن صَدَق، وسيبقيه الخصم رهينة ماضيه، ليستل منه تنازلا إثر تنازل، وحينها تغدو دعوته استجابة لإملاءات قويّ، أكثر منها تلبية لطموح، أو إشباعا لأشواق.

وأصحاب المنهج الأول لا يكتفون بإصدار المناهي، والتحذير من قربان العنف أو ممارسته، بل يمهدون لذلك بتربية تشمل العقل والوجدان، ويؤصلون له بفقه يتحدد فيه المصطلح، وتُراعى فيه أحكامه حسب الزمان والمكان.

أحسب أن الفكر الذي تستند إليه دعوة بديع الزمان النورسي من هذا القبيل، وإن لم يوصف بالفقيه اصطلاحا، وأزعم أيضا أن الطريق الذي اختطه لم يُضطر فيه لتبديل أو تغيير، وذلك بسبب وضوح الرؤية، وتقدير الواقع، وعدم الاغترار بالخصم، وبالعزلة التي اختارها، أو أُلجئ إليها.

إن اختصار الدين في الممنوعات تُلقى جزافا، يضيّق من فسح المباح، وحين تُبنى دعوة على مثل هذا الأمر تمهّد لمسالك الاضطرار، الذي يفضي غالبا إلى أنواع من العنف لا تُحمد، ومن ذلك ما نلاحظه من مواقف البعض تجاه قيمة الجمال، فبعض من يتصدى للدعوة يعادي كل ما يتعلق به، يبتدئ بالممنوع منه اتفاقا، ليشمل"تحريمه"ما لم يُتفق عليه احتياطا، وقد يوجد منهم من لا تستوقفه لوحة منه في الكون، تستجلب الإعجاب، فيُستثار قلب، يتبعه لسان، يلهج بذكر مَن برأ، ويستشعر بجمال الخلق جمالَ الخالق، ومثل هذا الموقف ينبئ عن ظلمة في النفس تُؤلف، فيزعجها الضياء، ولا تفرح بمن يحمله، أو يدعو إليه.

إنّ من كانت نفسه بغير جمال، لا يرى في الكون شيئا جميلا، والعكس صحيح، الأول يسعى للانتقام، وإن رفع لغيره شعارا، والثاني يبني على الموجود، يخشى عليه التلف، وبعض من ادعى الإصلاح الشامل هدم المعبد على من فيه، فلا الإصلاح تحقق، ولا المكاسب المحققة استمرت.

لا يكتفي بديع الزمان بتأمل الجمال طريقا يتوسل به إلى صفات الجلال والكمال، بل يضيف إلى ذلك القبح نفسه، فينسب إليه فضيلة الدلالة على الجمال، يقول رحمه الله:"

وتعال تأمل في هذا الجمال الزاهي، والحسن الباهر، ضمن هذا الانتظام والنظافة والميزان، بحيث جعل هذا الكون العظيم على صورة مهرجان في منتهى الجمال والبهجة، وعلى صورة معرض بديع، في منتهى الزينة والروعة، وعلى صورة ربيع زاه تفتحت أزاهيره تواً، وجمّل الربيع كزهرة عظيمة واسعة، تغطي وجه الأرض بمئات الألوف من أزاهيره الجميلة، وكل زهرة منها في أروع زينة وأبدع جمال، بل جعله كسندانة زاهية وباقة زهر لطيفة أمامنا...

وهكذا فهذا الحسن المحيط الجاذب، وهذه النظافة العامة الخارقة، وهذا الميزان الحساس المهيمن الشامل، وهذا الانتظام والانسجام المعجز المحيط بكل شئ، حجة قاطعة على الوحدانية، وعلامة واضحة على التوحيد، أسطع من ضوء الشمس في رابعة النهار."[1]

وحين يُنبَّه إلى أن هناك شرورا وقبحا في العالم لا تخطئه العين، وقد يشوش على الصورة الزاهية التي يرسمها لمن حوله، يجيب من غير تردد بأنه لولا صور القبح ما تجلّت صور الجمال:" إن قبحاً يكون سبباً لإنتاج أنواع من الجمال، أو سبباً لإظهارها، يعدّ كذلك جمالاً، وإن انعدام قبحٍ يؤدي إلى إخفاء كثير من الجمال، والى عدم ظهوره، لا يعدّ قبحاً واحداً، بل أضعافاً مضاعفة من القبح." [2]

ويعرض في موضع آخر لحكمة التقابل بين القيم المتضادة فيقول:".. إن تقابل الخير والشر في هذا الكون، واللذة والألم، والنور والظلام، والحرارة والبرودة، والجمال والقبح، والهداية والضلالة، وتداخل بعضها ببعض إنما هي لحكمة كبرى، لأنه ما لم يكن هناك الشر فلا يفهم الخير، وما لم يكن هناك الألم فلا تُعرف اللذة، والضياء من دون ظلام إزاءه لا يبين جماله، ودرجات الحرارة تتحقق بوجود البرودة، وتصبح حقيقة واحدة من الجمال ألفاً من الحقائق بوجود القبح، بل يكتسب آلافا من أنواع الجمال ومراتب الحسن، ويختفي الكثير من لذائذ الجنة بعدم وجود جهنم، فقياسا على هذا يمكن أن يعرف كل شئ من جهة بضده، وبوجود الضد يمكن أن تثمر حقيقة واحدة حقائقَ عدة"[3]

إن ميزة هذا الموقف تكمن في فضيلة التفاؤل التي يتحلى بها صاحبه، فنصف الكأس عنده دائما ملآى، والجوانب المضيئة هي التي تستوقفه، فيستبشر "..علينا أن ننظر إلى

الجهة الحسنة من كل شئ، والوجه الجميل المبشر منه، لكي لا تنشغل قلوبنا بما لا يعني من الحالات القبيحة العابرة، التي لا حاجة لنا إليها، بل هي مضرة تورث الضيق والانقباض، ولقد ذُكر في "الكلمة الثامنة": رجلان يدخل أحدهما الحديقة بينما يغادرها الآخر، فالمحظوظ السعيد هو الذي ينظر إلى الأزاهير وما شابهها من الأشياء الجميلة في الحديقة، فينشرح ويرتاح ويهنأ، بينما الآخر الشقي يحصر نظره في الأمور القذرة الفاسدة، لعجزه عن التنظيف، فينتابه الغثيان ويتضايق، بدلاً من أن ينسرّ في الحديقة، ويتركها هكذا..."(4)

القبح..و الحدة في المزاج والأحكام

إن من تسوء علاقته بالجمال المبثوث في الكون، يكتسب حدة في مزاج، يسلمه بدوره إلى الأحكام المطلقة التي لا يقبل فيها النقاش، وهذه تؤدي بالضرورة إلى مزلق آخر لا يقل خطورة عما سبق، فأصحاب هذا المسلك يسدّون كل باب للحوار، ويوصدون أي منفذ للتفاهم، فالحق النهائي الذي يعتقدونه بجانبهم، والصواب المطلق الذي يدّعونه، يمنعانهم من أنصاف الحلول، التي يوصل إليها الحوار، ويحجزانهم عن أي قاعدة يجتمع عليها المختلفون.

ولئن كان هذا موقفهم من الحوار مع الموافق، فالحوار مع المخالف في الدين لا جدوى تُرتجى منه، وعقيدته حينئذ-و ليس اعتداؤه-هي التي تبيح دمه، أو تستوجب قتاله، وأدنى اقتراب منه يثير الشك، وقد يؤدي إلى التبرؤ، وحين لا يُقدر عليه، ترتد السهام على من يليه، ذلك أن هذا الفكر يخشى من الهدوء، أو المهادنة، وإعلان العنف أو إشهاره هو الذي يرفع ذكره، ويبقيه صانعا للحدث، ولو في الظاهر، يغطى به على من يُهاب حقيقة جانبه.

لعل من أهم أسباب رفض الحوار اعتقاد جازم بامتلاك ناصية الحقيقة، وعدم التسليم-بلسان الحال أو المقال-بالوقوع في الخطأ، وكثير من الحركات تتأبى على النقد، تحسبه انتقاصا من قدر، أو نيلا من كرامة، وأكثر ما يظهر هذا الانحياز المطلق- الجالب للتعصب، والمستثير للعنف المادي أو المعنوي-حين الكلام على الحق الذي بحوزتنا، أو على الرجال الذين حملوه، ممن نحب ونقدر.

يذهب النورسي إلى أصل هذا الداء، ليضع الإصبع عليه، ويحذر من خطورته:".. إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا (أنا) فهو يجوب بهم في وديان الضلالة، فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلاّ بترك (أنا) وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم (أنا) فعليهم تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم انهم مثلهم يعبدون النفس، لذا فان عدم ترك (أنا) بخس للحق تجاه خدمة الحق."[5]

ويرشد إلى كيفية تطبيق هذه القاعدة فيقول:" عندما تعلم أنك على حق في سلوكك وأفكارك يجوز لك أن تقول: (إن مسلكي حق أو هو أفضل) ولكن لا يجوز لك أن تقول: (إن الحق هو مسلكي أنا فحسب) لأن نظرك الساخط وفكرك الكليل لن يكونا محكاً ولا حكماً يقضي على بطلان المسالك الأخرى.."[6]

ولما كان ادعاء احتكار الحقيقة أصلا لكثير من الشرور، فقد ربط بينه وبين ما يحدث من عداوة بين المؤمنين، وأرشدهم إلى الأولويات المتاحة في هذا المجال، فقال:" إن كنت تريد أن تعادي أحدا فعاد ما في قلبك من العداوة، واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها، وحاول أن تعادي من هو أعدى عدوك وأشدّ ضرراً عليك، تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداء أيضا فعاد الكفار والزنادقة، فهم كثيرون، واعلم أن صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شئ آخر."

ولا يكتفي بالنهي عن ذلك، بل يرشد إلى الفعل الذي من شأنه أن يشل حركة الخصم، فمن طبيعة الخصومة أنها تغري بالمزيد، ومن شأن المتحفز لها أن يترقب أدنى خطأ أو استفزاز، يبرر به ردا مساويا في العنف أو يفوق، فيقطع النورسي الطريق على ذلك كله ويقول:".. وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة، أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد، حتى لو اصبح مغلوباً ـــ ظاهراً ـــ فقلبه يمتلئ غيظاً عليك، فالعداء يدوم، والشحناء تستمر، بينما مقابلته بالإحسان تسوقه إلى الندم، وقد يكون صديقاً حميماً لك، إذ إن من شأن المؤمن أن يكون كريماً، فإن أكرمته فقد ملكته، وجعلته أخا لك، حتى لو كان لئيماً ـــ ظاهراً ـــ إلا انه كريم من حيث الإيمان.."[7]

الإقناع..و سيلة العاقل

إنّ من أُولى الشرور التي يؤدي إليها مسلك امتلاك الحقيقة أن يسعى مدّعيها إلى فرضها بالإكراه، الذي يمثل مظهرا من مظاهر العنف المقيت، ويجعل النورسي من نفسه مثالا في التواضع والتسامح، فيقول:" نعم! إن الفضيلة المتسمة بالإيمان، كما لا تكون وسيلة للإكراه، لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً، إذ الإكراه والقسر والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس إلا، بل إن أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع، بالعجز والفقر والتواضع..."(8)

ويعرض لهذا الأمر ضمن مصطلح كثيرا ما أغوت مضامينه، لكنه يتقصد هذا الربط ليؤكد موقع "الجهاد"الحقيقي في دعوته، فيقول:" أما الجهاد الخارجي فنحيله إلى السيوف الألماسية للبراهين القاطعة للشريعة الغراء، **لأن الغلبة على المدنيين إنما هي بالإقناع وليس بالإكراه، كما هو شأن الجهلاء الذين لا يفقهون شيئاً**."(9)

ويعرض لتفاصيل الخلاف بين السنة والشيعة–الذي لا يزال يثير الإحن والأحقاد، بل لا يزال إلى يوم الناس هذا يسيل الدماء–و يذكر في آخره أنه "لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء.."(10) ثم يخلص إلى توجيه نداء للطرفين بضرورة رفع هذا النـــزاع، وسد الطريق على من يستغله، لضرب أحدهما بالآخر، ويقول:" فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة، ويا أيها الشيعة الذين اتخذتم محبة أهل البيت مسلكا لكم(يلاحظ هاهنا أن النورسي ينسب إلى كل فريق أهم ما يميزه عن الآخر، أو ما يجب أن يُذكر به): "ارفعوا فوراً هذا النـــزاع فيما بينكم، هذا النـــزاع الذي لا معنى له ولا حقيقة فيه، وهو باطل ومضر في الوقت نفسه، وإن لم تزيلوا هذا النـــزاع فان الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً تستغل أحدكما ضد الآخر، وتستعمله أداة لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائه تحطّم تلك الأداة أيضا."(10)

إن لفت الأنظار إلى مسألة الاستغلال فيها من الحرص بقدر ما فيها من ذكاء، ذلك أن أهل السياسة لا يزالون يستعملون هذه" الورقة" لخدمة هذا الغرض أو ذاك، يظهرون المودة لطرف يوما، ثم يقربون الخصم الآخر في اليوم التالي، ولو التزمت الأطراف المدعوة بفحوى هذا النداء–من النورسي ومن غيره–لعُصمت دماء كثيرة أُزهقت، وجهود كبيرة أُهدرت.

الاختلاف البنّاء..و التأصيل للحوار

و يؤصل للخلاف، ويفرق بين ما يُحمد منه وما يُذم، حين يُسأل عن حديث يتكرر ذكره بين الناس(اختلاف أمتي رحمة) والذي يوحي ظاهره بأن الاختلاف-في حد ذاته- محمود، وبالذات"..لضعفاء الناس من العوام، إذ ينقذهم من تسلط الخواص الظلمة، الذين إذا حصل بينهم اتفاق.. اضطهدوا هؤلاء الضعفاء.." فيجيب-مبينا آداب الخلاف- بالقول:" إن الاختلاف الوارد في الحديث هو الاختلاف الإيجابي البنّاء المثبت، ومعناه: أن يسعى كل واحد لترويج مسلكه، وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، دون أن يحاول هدم مسالك الآخرين، أو الطعن في وجهة نظرهم وإبطال مسلكهم، بل يكون سعيه لإكمال النقص ورأب الصدع والإصلاح ما استطاع إليه سبيلاً. أما الاختلاف السلبي فهو محاولة كل واحد تخريب مسلك الآخرين وهدمه، ومبعثه الحقد والضغينة والعداوة، وهذا النوع من الاختلاف مردود أصلا في نظر الحديث، حيث المتنازعون والمختلفون يعجزون عن القيام بأي عمل إيجابي بناء."(11)

ومبعث هذا النوع الثاني من الاختلاف المذموم: الأغراض الشخصية في التسلط والاستعلاء، ".. وإشباع نفوس فرعونية..فلا تتلمع بارقة الحقيقة في هذا النوع من بسط الأفكار، بل تتولّد شرارة الفتن.."(12)

المرشد..حين يكون مثالا

و لا يتردد بديع الزمان في تحذير أتباعه من مسلك يتعلق بمثل موقعه، طالما جر إلى التعصب، وأفضى إلى العنف المعنوي، وإلى الفتن، في الجماعات والدول، وعطّل الإبداع، بحجة الاتِّباع، وقمَعَ نــزعة الحرية بدعوى مراعاة المراتب والمقامات، ففي مسألة من مسائل أضحت مدار التباس-كما يصفها النورسي نفسه-يعرض-بشجاعة نادرة-لنفسية الزعيم أو المرشد، وكيف أن نهج الأتباع في الاتِّباع كفيل بخلط الصلاحيات، بل وقمين أن يداعب غروره وأنانيته، وما لم يصرح به النورسي-و يقود تحذيره إليه، كما حدث ويحدث في كثير من الحالات مما يعاني منه الفكر الإصلاحي- أن يصنع الأتباع-في نفسية الزعيم-طاغوتا يشركون به ربهم في عبادتهم، يقول بديع الزمان:" كما انه ظلمٌ عظيم إذا ما أُعطي إلى شخص واحد ما تملكه الجماعة، ويكون الشخص مرتكباً ظلماً قبيحاً إذا ما غصبَ ما هو وقفٌ للجماعة، كذلك الأمر في النتائج التي تتحصل بمساعي الجماعة

وعملهم، والشرف والمنـــزلة المترتبة على محاسن الجماعة وفضائلها، إذا ما أُسند إلى رئيسها، أو أستاذها، أو مرشدها، يكون ظلماً واضحاً بحق الجماعة، كما هو ظلم بيّن بحق الأستاذ أو الرئيس نفسه، لأن ذلك **يداعب أنانيته المستترة فيه ويسوقه إلى الغرور،** فبينما هو حارسٌ بوابٌ للجماعة، إذا به يتزيا بزيّ السلطان، ويُوهم الآخرين بزيّه، فيظلم نفسه، بل ربما يفتح له هذا طريقاً إلى نوع من **شرك خفي**. نعم، إنه لا يحق أن يأخذ آمرُ طابورٍ الغنائم، التي حصل عليها الجنود من فتحهم قلعةً حصينة، ولا يمكنه أن يُسند انتصارهم إلى نفسه.

لأجل هذا يجب ألاّ يُنظر إلى الأستاذ أو المرشد على أنه المنبع أو المصدر، بل ينبغي اعتباره والنظر إليه على أنه معكس ومظهر فحسب...**لذا يجب ألاّ يُسند إليه مقام أكثر من مقام الوسيلة**-من حيث الفيوضات-بل يحتمل ألاّ يكون ذلك الأستاذ-الذي يُنظر إليه كأنه مصدر-مظهرا ولا مصدرا...**لهذا يمكن أن يكون مريد مخلص لشيخ غير كامل أكمل من شيخه، فينبري إلى إرشاد شيخه، ويصبح شيخا لشيخه.**"[13]

إن مما يلفت النظر ذلك التقييم المتزن الذي نلمسه في كتابات النورسي، فبالرغم من أن الحسين رضي الله عنه يمثل قيمة وجدانية تحوز الإجماع، إلا أن ذلك لم يمنع النورسي من أن يتناول حركته بالنقد، وتجربته للتمحيص، وحين يُسأل عن سبب إخفاقه لا يتوانى عن التصريح بالعلل التي حالت دون النصر الموعود، فيقول:" إذا استثنينا المقربين من سيدنا الحسين رضي الله عنه، نجد أن الأقوام المختلفة الذين التحقوا بهم هم ممن أصيب غرورهم القومي بجروح بيد العرب المسلمين، فهم يضمرون ثأراً تجاههم، مما كدّر صفاء النية ونقاءها التي كان يتحلى بها مسلك الحسين ومن معه، وأدّى تعكّرُ ذلك الصفاء وخفوت سطوع ذلك النهج القويم إلى تقهقرهم أمام أولئك."[14]

كان بإمكان الشيخ أن يجيب بالجواب المعهود، الذي يريح ويطمئن الأتباع، والمتعلق بالابتلاء وحكمته، ولكنه أرجأ ذلك إلى ما بعد تبيين السبب الدنيوي، مما يوحي باهتمام لافت بالأدواء والعلل الذاتية، بعيدا عن نرجسية معهودة يغوص في حمأتها خطاب عاطفي لا يلتفت إلى الوراء، ويتهيب من مصادمة وجدان مفعم، لا يريد أصحابه أن يشوش عليه جدل يحقق في الوقائع، ولا أن تنال منه دراسة تذهب بجلال الذكرى.

التكفير..أو العنف المعنوي

لعل الخطوة الأقرب إلى ممارسة العنف والولوغ في تبعاته–بعد أن عرضنا لبعض الجوانب التي تقود إليه– هي تلك التي تنــزع عن المسلم إسلامه، وتجرده مما غدا به معصوم الدم، ويفترض ألا ينتقل إلى غيرها إلا ببينة لا تحتمل الشك، وممن هو مؤهل للنظر في ذلك، واقتضى الأمر أن يعاد النظر في سلامة معتقده، وقد كان بديع الزمان وقافا عند حدود الله، مدركا لآثار أي انحراف عن حد من حدود الله، وقد ناقش الأمر من حيث الحكم، ومن حيث ما يترتب على الإطلاق فقال:"... فمثلاً: ورد بهذا المعنى: أن هذا الشيء كفر، أي: لم تنشأ هذه الصفة من الإيمان، أي أنها صفة كافرة، ويكون ذلك الشخص قد كفر لهذا السبب، ولكن لا يقال: إنه كافر، ذلك لأنه يملك صفات أخرى بريئة من الكفر، قد نشأت من الإيمان، فهو إذن يجوز أوصافا أخرى نابعة من الإيمان، إلا إذا عُلم يقيناً أن تلك الصفة قد نشأت من الكفر، لأنها قد تنشأ من أسباب أخرى، ففي دلالة الصفة شك، وفي وجود الإيمان يقين، والشك لا يزيل اليقين، فينبغي للذين يجرءون على تكفير الآخرين بسرعة، أن يتدبروا!" (15)

ثم يناقش الأمر من ناحية المصلحة والمفسدة، فيقول:" فمادام ليس هناك أمر شرعي في عدم الذم، وفي عدم التكفير، بينما في الذم والتكفير حكمٌ شرعي، فالذم والتكفير إن كانا على غير حق ففيهما ضرر كبير، وإن كانا على حق فلا ثواب فيهما، لأن هناك مالا يحد من الناس ممن يستحقون الذم والتكفير، أي إن عدم التكفير وعدم الذم ليس فيهما حكم شرعي، وليس فيهما ضرر أيضا."

وكلام بديع الزمان في هذه الجوانب–و إن كان يسيرا– إلاّ أنه يدل على فهم دقيق لآثار الانــزلاق خلف هوى التكفير، وهو الأمر الذي جهله، أو تجاهله بعض من تعجل، فوقع فيما وقع فيه، يقول النورسي:" ولو كان الجهاد قائماً وهو جهاد إسلامي، فان حال أطفال الكفار تبقى على وضع آبائهم، وربما يكونون من الغنائم، ويتمكن المسلمون أن يجعلوهم تحت إمرتهم وملك يمينهم، ولكن لو ارتد أحد داخل ديار المسلمين، فلا يُمتلك أطفاله قطعاً، ولا يجوز التجاوز على حقوقهم بأي شكل من الأشكال، لأن أولئك الأبرياء إنما يرتبطون بالإسلام وبجماعة المسلمين، برابطة الإسلام، التي انقطعت عن والدهم، أما أولاد الكفار فرغم أنهم من أهل النجاة، فإنهم يتبعون

والدهم في الحقوق والحياة، لذا ربما يكونون أسراء(كذا) أو مماليك عبيد في أثناء الجهاد الإسلامي."[16]

ولما كان التكفير مرتبطا بالموقف الذي ينتجه، يعرض النورسي لبعض الأخطاء التي وقع فيها من تسرع، فحين جاءه بعض "المتدينين" -قبيل الحرب العالمية-يشكون إليه تصرفات بعض قواد الجيش، ويطلبون دعمه ومشاركته في العصيان الذي يعتزمونه أجابهم بالقول:" إن تلك الأعمال اللادينية وتلك السيئات تعود إلى أمثال أولئك القواد، ولا يمكن أن نحمّل الجيش مسؤوليتها، ففي هذا الجيش العثماني قد يوجد مائة ألف من أولياء الله، وأنا لا أستطيع أن أمتشق سيفي ضد هذا الجيش، لذا لا أستطيع أن أشترك معكم، فتركني هؤلاء، وشهروا أسلحتهم، وكانت النتيجة حدوث واقعة **"بتليس"** التي لم تحقق أي هدف، وبعد قليل اندلعت الحرب العالمية، واشترك ذلك الجيش في تلك الحرب تحت راية الدين ودخل حومة الجهاد، فارتقت منه مئات الآلاف من الشهداء إلى مرتبة الأولياء، فقد وقعوا بدمائهم على شهادات الولاية، وكان هذا برهاناً وتصديقاً على صحة سلوكي وصواب تصرفي في تلك الدعوى."[17]

ثم إن هذا الأمر ليس من اختصاصه، ولا من قدرته، ومتى تخلفت القدرة انتفى التكليف، وانصرفت الهمم إلى القيام بما يُقدر عليه".. ثم إن شخصاً عاجزاً مثلي، لا يمكنه أن يستعمل النور والهراوة معاً في هذا الوقت، لذا فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور، بما املك من قوة، فيلزم عدم الالتفات إلى هراوة السياسة، أيا كان نوعها، أما ما يقتضيه الجهاد المادي، فتلك الوظيفة ليست مناطة بنا حالياً، نعم! إن الهراوة هي لوقف تجاوز الكافر أو المرتد عند حدّه، ولكن لا نملك سوى يدين، بل لو كانت لنا مائة من الأيدي ما كانت تكفي إلا للنور، فلا يد لنا تمسك بهراوة السياسة."[18]

ويضفي-في موقع آخر-بعدا فلسفيا وتعليليا للعزوف عن السياسة ككل، وما تجره من مصائب، يكتوي بنارها الأبرياء، وينجو من أتونها من أجرم، فيقول:" إن الشفقة والضمير والحقيقة تمنعنا من السياسة، لأنه لو كانت نسبة المنافقين الملحدين الذين يستحقون العقاب اثنين من عشرة، فهناك سبع أو ثمان من الأبرياء من أقاربهم وذويهم، وهناك الأطفال والعوائل والشيوخ والمرضى، فإذا نــزلت المصيبة والبلاء فإن أولئك الأبرياء الثمانية سيسقطون في أتون المصيبة، ولربما سيلحق بالمنافقين الاثنين والملحدين

ضرر طفيف، ولهذا فإن ما في ماهية رسائل النور من الشفقة والرحمة والحق والحقيقة قد حالت دون الدخول في السياسة، بوسائل الإخلال بالإدارة والنظام، فضلاً عن أن نتائجها مشكوك فيها."(19)

إشفاق الداعية..أو تطهير القلب من التشفي

إن النفس التي لا تستشعر لذائذ الإيمان، تأسرها آلام الحياة، والمسلم الذي يضيق بكل من خالف، قد تضيق عليه نفسه، والذي يتأبى على التذلل لمولاه، ويطلق العنان لأهواء نفسه، قد يكسوها برداء الشرع، للتنفيس عن مزاج يستولي عليه، فيكره الآخر، وقد يحقد عليه، ويترقب لحظة انتقام تُسعفه، وقد أراح بديع الزمان نفسه من هذه المضائق، فأعلن أن الخصم أو العدو يريد موته، في حين يسعى النورسي لإنقاذه من الموت الدائم، والسيطرة على غريزة الانتقام بهذا الوجدان لا يخفف الآلام فحسب، بل يجلب اللذة والسعادة، إذ تستمر وظيفة الدعوة حتى في أشد الأوقات حرجا:" إن الذين يسوموننا العذاب قد قبضوا بأيديهم على وسائل الحياة ومباهج الحضارة والمتع والملذات، ويتهموننا: أننا لا نعبأ بذلك الطراز من الحياة، بل يدينوننا على ذلك، حتى إنهم يريدون أن يعاقبونا بالإعدام، أو بعقوبات مشددة من السجن، ولكن لا يجدون حجة قانونية لذلك.

أما نحن فنقبض بأيدينا على الموت الذي هو ستار دون الحياة الباقية، ونسعى أيضا بكل ما نملك من قوة لإنقاذهم من تبعات المسؤولية الحقيقية، ومن الحكم عليهم، ومن الإعدام الأبدي، والسجن المنفرد الدائمي(كذا) حتى أنهم إذا أصدروا أشد العقوبات عليّ، بسبب الرسائل القوية المرسلة إلى "أنقرة" فإن قلبي وكذا نفسي تطاوعاني على إنـــزال تلك العقوبات الصارمة بي، إذا نجا أولئك الذين يصدرون تلك الأحكام، من إعدام الموت بسبب تلك الرسائل، بمعنى أننا نريد لهم الحياة في كلا العالمين، ونتحرى لهم عن دواعي ذلك، أما هم فيريدون القضاء علينا، ويتشبثون بحجج لذلك."(20)

إنّ القهر الذي تنـــزله الطبقات البديلة بالشعوب أورث إحساسا بترقب الفرج في أي وقت، ومن أي جهة، وبعض ما نشهده اليوم قد مر مثله على بديع الزمان، حتى لَيُظن بأن التاريخ يعيد نفسه-في بعض الأحيان-بنفس التفاصيل، وموقفه من بعض الأحداث يمثل رؤية متقدمة، مفادها الصبر على البلاء مع بعض الأمن، خير من الفرج

الموهوم وسط الفتن والدماء، التي تجلبها محاولات الإصلاح بالقوة، أو مبادرات الإصلاح عن طريق التدخل الأجنبي، وفي هذا الإطار يرد عليه السؤال الآتي:

"إن هجوم الأجانب كإنكلترا وإيطاليا على هذه الحكومة في الآونة الأخيرة يؤدي إلى إثارة الحمية الإسلامية، وهي ركيزة حقيقية ومنبع قوة معنوية لحكومات خلت في هذا الوطن منذ أمد بعيد، وستصبح وسيلة لإحياء الشعائر الإسلامية - إلى حد ما - ولدفع شئ من البدع.. فلِم عارضتَ هذه الحرب بشدة وسألت الله أن تحل القضية بسلام وأمان، فقد أصبحتَ منحازاً لحكومة المبتدعين، وهذا بذاته وبنتائجه موالاة للبدع!؟"

أجاب النورسي على هذا السؤال المحرج، فقال:" نحن نسأل الله الفرج والبشارة والسرور والفتح، ولكن ليس بسيف الكفار.. فسحقاً لسيوفهم ولتكن وبالاً عليهم، نحن لسنا بحاجة، ولا نرجو الفائدة من سيوفهم، لأن أولئك الأجانب المتمردين هم الذين سلطوا المنافقين على أهل الإيمان، وهم الذين ربّوا الزنادقة في أحضانهم."[21]

وللنورسي مواقف مشهودة ضد الحروب، وما تجره من دماء ودمار، يستغلها الكبار المتجبرون، ويعاني من ويلاتها الضعفاء من البشر، وليس للإسلام فيها رأي ولا مصلحة، وتأبى روحه ومبادئه أن يزكيها، أو يزكي أنصارها، ومن النصوص العديدة في ذلك قوله:"...إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمرة، بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم.. واتفاق أعتى المستبدين من البرجوازيين مع الفوضيين والإرهابيين، الذين هم المتطرفون الإشتراكيون والشيوعيون، وإهدار دماء ألوف بل ملايين الأبرياء.. والاستمرار في هذه الحرب الضارة للإنسانية جمعاء.. وردّ الصلح والسلام.. لذا فان الإسلام والقرآن الكريم بريئان بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة، التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة، ولا مع الإنسانية، ولا مع أي دستور كان من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق، ولا يتنازلان ولا يتذللان لمعاونة أولئك؛ لأن فرعونية رهيبة ومصلحية عجيبة تستحوذان فيهم،(كذا) بحيث لا يمدون يد العون إلى القرآن والإسلام، بل يحاولون جعلهما آلتين طيعتين في سبيل مآربهم، فلا شك أن أحقية القرآن تأبى الاستناد إلى سيوف ظالمين كهؤلاء، بل الفرض على أهل القرآن والواجب عليهم الاستناد إلى قدرة رب العالمين ورحمته، بدلاً من الاستناد إلى قوة عجنت بدماء ملايين الأبرياء."[22]

التربية السلمية..و وضوح الطريق

لقد كان الهدف من رسائل النور واضحا منذ البداية، وكان التركيز على مهمة إنقاذ الإيمان بالتربية منهجا، تعليما وتوريثا، وباللين أسلوبا، اتباعا واحتسابا، وكان النورسي واثقا من نتائج هذا المنهج، ولذلك تحدى خصومه بالقول:" لقد قرأ عشرون ألف فرد عشرين ألف نسخة من رسائل النور، في ظرف عشرين سنة، ورضوا بها وتقبلوها، ومع ذلك لم تقع حادثة واحدة مخلة بالأمن من قبل طلاب رسائل النور، ولم تسجل المراجع الرسمية أية حادثة من هذا القبيل، كما لم تستطع المحكمة السابقة ولا المحكمة الحالية العثور على مثل هذه الحادثة، علماً بان نتائج مثل هذه الدعاية القوية والمنتشرة بكثرة كان لابد لها من الظهور في ظرف عشرين يوماً بشكل حوادث ووقائع."[23]

هذا التحدي ما كان ليصدر عن الرجل لو لم تتضح عنده معالم الطريق التي اختطها منذ البداية، والخيار الذي لجأ إليه في التربية وإنقاذ الإيمان كان خيارا استراتيجيا- بالمفاهيم الحديثة- ولم يكن تكتيكيا، تمليه ظروف طارئة، لقد قدّر-فيما يبدو-أن هذه المهمة تستغرق أجيالا، ولا تكفي فيها الخطط المرحلية، فلذلك ابتعد عن كل ما من شأنه أن يشوش على النهج، أو يعترض طريق البناء، بالمعنى الذي ارتآه، أو يورط نفسه وأتباعه في الفجوة والثغرة، يقتنصها من يكيد، ولذلك أيضا لا يمكن ضبطه بلحن القول، يُستخرج من خلال السطور، أو من بينها، ولم يلجأ إلى ما لجأ إليه غيره من المربين والمصلحين، ربما لاختلاف ظروف الزمان والمكان، وربما لرؤية جاءت ثمرة تجربة خاصة، لا يمكن تصديرها، أو إلزام الآخرين بها، لنفس السبب.

السياسة..و منافذ الشرور والعنف

و من نتائج هذا الوضوح ما كان يمكن ضبطه أيضا بتعدد المسالك، واحد للسر، وآخر للجهر، بل هو مسلك واحد ليس فيه ما يُعاب-عند من يترصد-إلا بتمحّل يُظهر ضعف الخصم، أو تجاوز يكشف بطشه، بل يذهب أبعد في الوضوح والتحدي-الضمني-حين يدعو الدولة إلى تبني منهج الرسائل، لما فيها من خير ديني ودنيوي، ثبتت نجاعته، فيقول:" ثم بات من المسلّم به فائدة هذه الرسائل، الداعية إلى القرآن، والتي هي لمعات من أنواره الباهرة، لحياة الأمة ولأمن البلاد، وحتى لحياتها السياسية، فضلاً عن حياتها الأخروية، فمن الضروري إذن للدولة ألاّ تتعرض لها بسوء، بل تسعى جادة إلى

نشرها، وتشجع الناس على قراءتها.. ليكون عملها هذا كفّارة عما اقترفت من سيئات فاحشة سابقة، وسداً منيعاً في وجه ما سيقبل من ويلات ومصائب وفوضى وإرهاب."[24]

ويؤكد ذلك بمخاطبة أهل الحكم فيقول:" فأنتم يا أهل السياسة والحكومة! لا تنشغلوا بنا بناءً على الظنون والأوهام، بل عليكم أن تذللوا المصاعب لنا وتسهّلوا الطريق أمامنا، لأن خدمتنا تؤسس الأمن والاحترام والرحمة، فتسعى لإنقاذ النظام والأمن والحياة الاجتماعية من الفوضى والإرهاب، فخدمتنا ترسي ركائز وظيفتكم الحقيقية وتقويها وتؤيدها."[25]

لقد كان هذا الخطاب يسعى-قبل أن يحس بضرورته الآخرون-للتطمين وإزالة الهواجس، وحاول أن يؤسس لعلاقة تمنع الصدام،و تعترض طريق "الإرهاب"، بالإيحاء بأن الجميع في سفينة واحدة، وأن المخاطر ليست من قِبَله، ولا من قبل جماعة النور، بل العكس هو الصحيح، "..فليعلم أهل السياسة علما قاطعا-رغم أننا لا علاقة لنا بهم-أن العلاج الوحيد لإنقاذ الأمة-في هذه البلاد، وفي هذا العصر-من الفوضى والإرهاب، ومن التردي المريع، والتدني الرهيب هو: أسس رسائل النور."[26]

والأمر ليس آنيا، ولا تكتيكيا ظرفيا-كما يتوجس عادة أهل السياسة-بل هو نابع من طبيعة الرسائل نفسها، يقول النورسي في هذا المجال:" إن رسائل النور قد أظهرت خدماتها كسيف ألماسي قاطع بيد هذه المعجزة الكبرى، حتى ألزمت الحجة أعداءها العنيدين، وألجأتهم إلى الاستسلام، وإنها تقوم بوظيفتها بين يدي هذه الخزينة القرآنية، من حيث كونها معجزةً لمعانيه المعجزة على نحو تستطيع أن تنور القلب والروح والمشاعر، مناولةً كلاً منها علاجاتها الناجعة، ولا غرو، فهي الداعية إلى هذا القرآن العظيم والمستفيضة منه وحده، ولا ترجع إلا إليه."

ولما كان همها خدمة القرآن وإنقاذ الإيمان، فأتباعها ينفرون من السياسة، وفي هذا رسالة مبطنة لمن يهمهم الأمر بأنه لا أطماع تحركهم، ولا مغانم ينتظرونها:" إن الإيمان والشريعة والحياة ثلاث مسائل عظيمة في العالم الإسلامي والإنساني، وأعظم هذه الثلاثة هي الحقائق الإيمانية، ولأجل ألاّ تكون هذه الحقائق الإيمانية القرآنية أداة لتيارات أخرى ولقوىً أخرى، وللحيلولة دون التهوين من شأن الحقائق القرآنية التي هي بقيمة الألماس

إلى قيمة قطع زجاجية متكسرة، ولأجل الإيفاء بالخدمة المقدسة التي هي إنقاذ الإيمان إيفاء تاماً ينفر طلاب رسائل النور الخواص الصادقون نفوراً شديداً من السياسة"[27]

وعدل عن التلميح إلى التصريح فقال:" إن خدمة الإيمان وحقائق الإيمان هي أجلّ من كل شيء في الكون، فلا تكون أداة لأي شيء كان، فإن خدمة القرآن قد منعتنا كليا من السياسة، حيث إن أهل الغفلة والضلالة–في هذا الزمان الذين يبيعون دينهم للحصول على حطام الدنيا، ويستبدلون بالألماس القطع الزجاجية المتكسرة–يحاولون اتهام تلك الخدمة الإيمانية بأنها أداة لتيارات قوية خارج البلاد، وذلك للتهوين من شأنها الرفيع."[28]

إنقاذ الإيمان..و الجهاد الأكبر

أحسب أن هذا البيان المتكرر لوظيفة الرسائل، يستوعبه الأتباع، والتطمين المتلاحق، يحاول بديع الزمان أن يقنع به الخصوم، هو الذي منع–بتوفيق من الله–مواجهة تفرضها الأحداث، ويتشوق إليها خصم قوي، يتمنى التخلص من غريم، يحسبه خطرا على مشروع دخيل، ولو بعد حين.

إن الحرص على الوحدة، واعتراض طريق الاختلاف،و الحذر من الأعداء، يدرجه بديع الزمان ضمن "الجهاد المعنوي"، في مقابل الجهاد. بمفهومه الاصطلاحي المعروف، ويُعطيه الأولوية على الذكر نفسه، ولإقناع الأتباع بعظيم نفعه، وكبير أجره، ولصرف الذهن عن تعلق الأجر –فقط–بالجهاد المعروف يقول:"...و لا يقولن أحدكم: سأصرف وقتي الثمين في قراءة الأوراد والأذكار والتأمل، بدلا من أن أصرفه في مثل هذه الأمور الجزئية، فينسحب من الميدان، ويصبح وسيلة في توهين الاتفاق والاتحاد، وسببا في إضعاف الجماعة المسلمة، ذلك لأن المسائل التي تظنونها جزئية وبسيطة، ربما هي على جانب عظيم من الأهمية في هذا الجهاد المعنوي، فكما أن مرابطة جندي في ثغر من الثغور الإسلامية – ضمن شرائط خاصة مهمة – لساعة من الوقت، قد تكون بمثابة سنة من العبادة، فان يومك الثمين هذا الذي تصرفه في مسألة جزئية من مسائل الجهاد المعنوي، ولا سيما في هذا الوقت العصيب الذي غُلب أهل الحق فيه على أمرهم، أقول إن يومك هذا ربما يأخذ حكم ساعة من مرابطة ذلك الجندي، أي يكون ثوابه عظيماً، بل ربما يكون يومك هذا كألف يوم، إذ ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله، فلا يُنظر إلى

صغره وكبره، ولا إلى سموه وتفاهته، فالذرة في سبيل رضاه سبحانه مع الإخلاص، تصبح نجمة متلألئة، فلا تؤخذ ماهية الوسيلة بنظر الاعتبار، وإنما العبرة في النتيجة والغاية، وحيث إنها رضى الله سبحانه، وأن أساس العمل هو الإخلاص، فلن تكون تلك المسألة إذن مسألة صغيرة، بل هي كبيرة وعظيمة."[29]

و يعرض للفساد المستشري، ولوظيفة البناء التي يتكفل بها طلبة الرسائل فيقول:" إن أهم وظيفة تقع على عاتق طلاب النور: خدام القرآن الكريم، في هذا الوقت هي: اتخاذ التقوى أساساً في الأعمال كلها، ثم التحرك وفقها أمام تيار الدمار الرهيب المهاجم، والآثام المحيطة بهم، إذ يواجه الإنسان ضمن أنماط الحياة الاجتماعية الحاضرة مئات من الخطايا في كل دقيقة، فالتقوى هي التي تجعل - دون ريب - الإنسان كأنه يقوم بمئات من الأعمال الصالحة، وذلك باجتنابه تلك المحرمات...لذا فمقاومة خدام القرآن الكريم وحدهم تلك التخريبات المريعة إنما هي عمل خارق جدا.." ثم يخلص إلى وصفه بالجهاد، فيقول:"..لذا فإن الجهاد المعنوي لطلاب النور ضد التيار الجارف، يُعدّ-بإذن الله-جهادا عظيم الثواب، إذ فيه قبس من جهاد الصحابة الكرام..."[30]

وفي هذا الإطار ينبغي فهم كلامه في بعض المواضع التي قد تُحمل على غير ظاهرها:" إنني بكل ما أملك من وجود، أجاهد هؤلاء، أدعو المسلمين وبخاصة الشباب إلى الإيمان، فأنا في جهاد دائم مع هذه المجموعة الملحدة، وسأمثلُ إن شاء الله في ديوان حضوره سبحانه وأنا رافع راية هذا الجهاد، وكل عملي ينحصر في هذا، وأخشى ما أخشاه أن يكون الذين يحولون بيني وبين غايتي هذه هم بلاشفة أيضا."[31]

و هناك إيحاء أوضح بالفكرة التي يريد النورسي تمريرها، فاستعمال مصطلح "الجهاد الأكبر" يدخل في هذا المجال، وهو وإن كان يعني به ما يعنيه بالجهاد المعنوي، إلاّ أن دلالته على ما يريد أقوى وأصرح، يقول:"... وإن جني فوائد الحرية الحقة، والاستفادة منها استفادة كاملة، منوط بالاستمداد من الإيمان، ذلك لأن من أراد العبودية الخالصة لرب العالمين، لا ينبغي له أن يذلّ نفسه، فيكون عبداً للعبيد، وحيث أن كل إنسان راعٍ في مُلكه وعالَمه، **فهو مكلّف بالجهاد الأكبر في عالمه الأصغر**، ومأمور بالتخلق بأخلاق النـــبي ρ، وإحياء سنته الشريفة."[32]

لكن لا ينبغي أن يُفهم من هذا أن النورسي يغفل تاريخا حافلا للجهاد بمعناه الاصطلاحي، فهو يعرض لضرورته وغلبة فوائده في مناقشة افتراضية فيقول:" ...عند

سوق الجيش إلى الجهاد لابد من حدوث أضرار وشرور جزئية مادية وبدنية، ومن المعلوم كذلك أن في الجهاد خيراً كثيراً، حيث ينجو الإسلام من سيطرة الكفار، فلو تُرك الجهاد خشية حدوث تلك الأضرار والشرور القليلة لحصل إذا شر كثير من دون الحصول على خير كثير، وهذا هو عين الظلم، ومثال آخر: إن قطع الإصبع التي أصابها (الغنغرينا) فيه خير وهو حسن، بينما يبدو ذلك القطع في الظاهر شراً، ولكن لو لم تقطع تلك الإصبع لقطعت اليد، فيحصل آنذاك شر أكبر."[33]

ويذكر في تفسير أواخر سورة الفاتحة إلى" أفضل الطرق وأسلمها" ويحدد بأنها" أن يرزقك الله الشهادة، أو شرف الجهاد."[34]

ومع ذلك يحذّر من الزمن الذي تنقلب فيه المفاهيم فيقول:" سيكون زمان يُخفي الضدُّ ضدَّهُ، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة، وإذا بالظلم يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد، ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله، ويسمّى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية."[35]

الإحالات

(1) الشعاعات:36/4
(2) الشعاعات:37/4
(3) الشعاعات:290/4
(4) الشعاعات:559/4
(5) المكتوبات:549/2
(6) المكتوبات:342/2
(7) المكتوبات343/2
(8))اللمعات:259/3
(9) صيقل الإسلام:527/8
(10) اللمعات:37/3
(11) اللمعات:38/3
(12) المكتوبات:347/2-348
(13) اللمعات:204/3-205
(14) المكتوبات:69/2
(15) صيقل الإسلام:339
(16) الملاحق:244/1-245
(17) الشعاعات:422/4
(18) اللمعات:158/3
(19) الملاحق:212/7-213

(20) الشعاعات:4/395-396
(21) اللمعات:3/158-159
(22) الملاحق:7/203
(23) الشعاعات:4/331 وانظر أيضا(427) (437) (608) (694)
(24) الكلمات:1/174
(25) الملاحق:7/160
(26) الملاحق:7/159
(27) الملاحق:7/165
(28) الملاحق:7/159
(29) اللمعات:3/235-236
(30) الملاحق:7/169- 170و انظر أيضا حول استعماله لمصطلح"الجهاد المعنوي:الشعاعات4/ 489
(31) الشعاعات:4/544
(32) صيقل الإسلام:8/531 وانظر أيضا:(8//534) و(المثنوي العربي:6/213)
(33) المكتوبات:2/52
(34) الكلمات:1/890
(35) الكلمات:1/849 وانظر: المكتوبات:2/604